بجميع الالقاب والنياشين

والمعاملات التجارية تقتضي كتابة الصكوك وارسال المفاتيح والتحاريز من بلاد الى أخرى وكان الاشوريون يرسلون هذه المفاتيح والتحاريز من اشور الى مصر منقوشة على الاجر بالقلم المسفيني الكثير التعقيد والالتباس منذ نحو اربعة آلاف سنة فلم يرُق ذلك في عيون الفينيقيين ولم يستسهلوا تجّارهم فاستنبطوا حروف الهجاء وجعلوا المعاملات بها فوفت بحاجة التجار والصناع ورجال الدين والسياسة . وقد زاد اليونانيون عليها بعض الحروف ليكتبوا بها كل اصوات لغتهم وتعلمها منهم الرومان ثم انتشرت في بقيّة الممالك الاوربية كما انتشرت في الممالك الشرقية

فاذا كانت كتابة العقائد الدينية والامور العلمية والقوانين السياسية ونشر ذلك في الكتب والجرائد من لوازم العمران بل من اعظم دعائمه كان للفينيقيين الفضل الاول في انتشار العمران لانهم اول مَن استعمل حروف الهجاء واذاعها في المسكونة

الرتيلاء الزهرية

كتب المستر بل من مستعمرة الساحل الذهبي بغربي افريقية الى جريدة نائشر العلمية بقول

كنت ذاهبًا من مدينة شاما الى مدينة سكندي في شهر اغسطس الماضي والارض هنالك كثيرة الآجام والانجم فرأيتُ في احد تلك الانجم شيئًا كالزهرة البيضاء فدنوت منهُ وامعنتُ نظري فيهِ واذا هو بيت من بيوت العنكبوت لا زهرة كما ظننتُ اولاً . وهذا البيت متصل بالاغصان التي حولهُ باطناب من الحرير الدقيق ويحيط بهِ ثلاثة سيور بيضاء لامعة متعجّة ووسطهُ مفتوح والخطوط الموصلة بين السيور دقيقة جدًّا حتّى لا تكاد ترى لدقتها . ومما يزيد مشابهة الزهر ان الرتيلاء كانت واقفةً في مركزهِ وهي زرقاء اللون وارجلها صفراء مرقطة برقط سمراء فتنقسم بها الزهرة الى اربعة اقسام وتظهر كانها ذات اربع اوراق (بتلات) . فوضعتُ شبكة تحت البيت ولمستهُ بيدي فوقعت الرتيلاء في الشبكة وحالما لمستُها استحال لونها الازرق الى ابيض ناصع . ولما هززت الشبكة بها عاد لونها فاستحال الى اسمر ضارب الى الخضرة . فوضعتها في اناء من الزجاج فعادت الى لونها الازرق . وكنت كلما هززت الاناء بها اراها تعود الى اللون الاسمر المخضر

وبعد قليل شاهدتُ بيتًا آخر من بيوت العنكبوت شبيهًا بزهرة الزنبق الابيض ولكنهُ اكبر من الاول وامتن والسيور البيضاء ليست محيطة به احاطةً بل متقاطعة تقاطعًا . وهذه الرتيلاء اكبر من الاولى ولكنها تشبهها في شكلها . ولونها ازرق زاهٍ وهي قائمة في منتصف الزهرة . ولما لمست هذا البيت خرجت الرتيلاء من بين خيوطهِ ووقفت على اجانب الآخر منهُ حتّى كادت تختفي وراء السيور الحريريّة المشبكة فقبضت عليها وللحال استحال لونها الازرق الى لون اسمر ضارب الى الخضرة ولكنها لم تبيّض كما ابيضّت الاولى فوضعتها في اناء من الزجاج وبعد خمسة ايام نقلتها الى قفص ونزعت بيتها ولصقتهُ على ورقة سوداء وصوّرتهُ صورة شمسيّة . فلم تكد تقيم في القفص يومًا واحدًا حتّى نسجت بيتًا فيهِ نسجتهُ في الليل لا في النهار ولذلك لم أتمكّن من رؤيتها وهي تنسجهُ . وهو مثل البيت الذي رأيتها فيهِ . وبقيت في هذا القفص خمسة اسابيع وكنت اطعمها من الذبان . وقدمتُ لها مرةً ذبابة كبيرة زرقاء فقبضت عليها حالاً وجعلت تهزّ بيتها هزًّا سريعًا وتديرها بين يديها وفي اقل من اربع ثوانٍ احاطت جسمها كلهُ بفلالة من الحرير الابيض وتركتها لاحراك بها ثم قبضت عليها بفمها وجعلت تمتصّ دمها واقامت على ذلك نحو ساعتين

وقد رأيت كثيرًا من هذه البيوت بعد ذلك ووجدت ان شكلها يتوقف على حرم الرتيلاء التي فيها فالرتيلاء الصغيرة تنسج السيور المتعمجة محيطة بالبيت احاطةً والرتيلاء الكبيرة تنسجها متقاطعة وكثيرًا ما كنت اجد اجنحة الحشرات وبقايا جسمها لاصقة بهذه البيوت دلالة على ان الرتيلاء افترستها وابقت ذلك منها ووجدت في احدها جناح فراشة كبيرة دلالة على ان هذه الرتيلاء لا تعجز عن افتراس الفراش الكبير

ولا اعلم لماذا تغيّر الرتيلاء شكل بيتها اذا كبرت ولعلها تجد ان البيت الكبير الذي تحيط بهِ السيور احاطةً لا يشبه الزهر تمامًا فلا تخدع بهِ الحشرات فتعدل عنهُ وتنسج السيور متقاطعة فتصير اشبه بالزهرة ويتيسر لها الوقوف عليها

ولا شبهة في ان هذه الرتيلاء تبني بيتها شركًا للحشرات فان الحشرات تقع على الازهار لكي تمتص الاري منها فاذا رأت هذا البيت ابيض وفي وسطهِ نقطة زرقاء لم تشك في انهُ زهرة فتقع عليهِ من نفسها وهي لا تدري انها تسعى الى حتفها بظلفها فتصير للرتيلاء غنيمة باردة

ولا يعلم كيف تغيّر الرتيلاء لونها ولكن العالم مكوك اشار الى ان لون ما يحيط بها يؤثر فيها فتؤثر ارادتها بالاجسام الملونة التي في بدنها

وقد اوردنا الكلام على هذه الرتيلاء لا لمجرّد غرابتها بل لاننا وجدناهُ مثالاً من الامثلة الكثيرة التي نقف عليها كل يوم في كتب الاوربيين وجرائدهم وهي تدلُّ على انهم لا يتركون شيئًا الاَّ و يضعون نظرهم فيهِ سواءٌ كانوا في اوطانهم او ضاربين في البلدان البعيدة وسواءٌ كان ذلك الشيء من الاشياء الكبيرة العظيمة الشان او من احقر الموجودات . فانهم يحسبون ان كل شيء من المخلوقات من الانسان سيدها الى اصغر ذبابة ونملة ومن الجبال الرواسخ الى حبوب الرمال بل من اكبر الاجرام السموية الى اصغر الموجودات التي لا ترى الاَّ بالمكبرات لصغرها — كل ذلك يستحق النظر والبحث والدرس والتنقيب . وبمثل هذا البحث وهذا الدرس يتسع نطاق المعارف وتتوفر الراحة والرفاهة

وهذا السبيل الذي نرى الاوربيين والاميركيين جارين فيهِ الآن قد طرقهُ سكان الديار المصريَّة والشاميَّة من قديم الزمان فترى كتبهم في الطب والجراحة والنبات والحيوان بل كتب الرحلات مشحونة بوصف الموجودات وقد لا يخلو ذلك من الوهم وعدم التدقيق ولكنهُ فضل مما آلت اليهِ احوال الكتَّاب بعد حين وما لا تزال عليهِ الى يومنا هذا

ولم نكتفِ بتطليق العلم بتاتًا بل صرنا ندَّعي ان كل العلم في صدورنا وان علم الاوربيين كلهُ هذيان واننا في غنًى عن كل شيء عندهم . وهذا القول سمعناهُ بآذاننا من اناس يعدون من اكبر العلماء عندنا ولا نزال نسمع صداهُ يتردد في بعض جرائدنا . واننا لنخشى ان نمسي عبيد العبيد للاوربيين ونبقى ندَّعي اننا ارباب المعقول والمنقول واراكنة العلم والعرفان

ولا نبرئُ مدارسنا من هذا الموت العلمي فانها نشأت حديثًا منذ خمسين سنة واتخذت خطة المدارس الاوربيَّة وترجمت كتبها ولكن التعليم لم يثمر عندنا كما اثمر في اوربا لان الاساليب التي استخدمها الاساتذة كانت في الغالب عقيمة فلم تنبه عقول الطلبة الى البحث والتنقيب واستجلاء اسرار الطبيعة واستكشاف غوامضها . وجرى كثيرون من الاساتذة على خطة الانتحال الوخيمة فصار الواحد منهم يترجم كتابًا ويدَّعي انهُ تأليفهُ ولو سمحنا ويصدِّرهُ بقولهِ تأليف علاَّمة زمانهِ ووحيد عصرهِ واوانهِ فيقتدي بهِ تلامذتهُ في الانتحال ولا يحاولون البحث والاستنباط ولذلك بقي غرس المعارف عندنا ضعيفًا ضئيلاً لا ثمر فيهِ

وستبقى هذه الحال حالنا ما دمنا نعدُّ كل مَن يبيِّن عيوبنا ويحثُّنا على اجتنابها عدوًّا لنا ساعيًا في انهضام حقوقنا وتثبيط عزائمنا